المقتطف

الجزء الثاني من المجلد التاسع والثلاثين

١ اغسطس (آب) سنة ١٩١١ — الموافق ٦ شعبان سنة ١٣٢٩

رياض باشا

التحوُّل الفجائي ناموس طبيعي كالوراثة الطبيعية وهو مثلها يشمل نوع الانسان شمولهُ لانواع الحيوان والنبات. فبينا ترى البعض يرثون العظمة كابراً عن كابر ترى البعض الآخر عصاميين يقولون مع الطغرائي

وان كرمت قبلي اوائل اسرتي فاني بحمد الله مبدأ سؤددي

ومثلهُ شمولاً ظهور النوابغ في كل الازمنة وجميع البلدان فنابغة الشعراء ونابغة الخطباء هوميروس وديموستنس يونانيان ونابغة المصورين ونابغة النقاشين رفائيل وانجلو ايطاليان ونابغة القادة ونابغة الساسة نبوليون وبسمارك فرنسوي والماني وقس على ذلك سائر النوابغ

وقد نبغ في القطر المصري في القرن الماضي ثلاثة من الوزراء نشأوا فيهِ كما ينشأ اكثر النوابغ لا متأصلين ولا مقتدين — شريف باشا وتوفيق باشا ورياض باشا لم تتصلهم الرئاسة من آبائهم ولا ورثوها عن اجدادهم ولا اتفقوا في كل امر بل اختلفوا في طباعهم وامزجتهم ومناحيهم ولكنهم اتفقوا في انهم فاقوا معاصريهم في الاناقة وعلو الهمة وكبر النفس وحب الوطن. وقد نجحت مصر بنائهم في الشهر الماضي بعد ان نجحت بسابقيهِ

وهو دولتلو مصطفى رياض باشا ابن ناظر الضربخانة المصرية ولد سنة ١٢٥٠ هجرية وتوفي ولهُ من العمر ٧٩ سنة هلالية او ٧٧ سنة شمسية. وكان قصير القامة نحيف الجسم تدل ملامحهُ ولهجتهُ في كلامهِ على انهُ من اصل تركي لا من اصل مصري. تلقَّى مبادئ العربية والتركية في بيت والدهِ ثم في مدرسة المفروزة ثم جعل ياوراً عسكرياً لعباس باشا. وتوسَّم فيهِ عباس باشا مخايل النجابة والذكاء فضمَّهُ اليهِ على الجندية وجعلهُ مهرداراً لهُ. ثم وجد فيهِ من دلائل الحزم ما يخولهُ ادارة العباد فجعلهُ مديراً للجيزة. وقد سمعنا منهُ مراراً انهُ جُعل مديراً

وهو شاب فلم يتعذر عليهِ القيام بذلك المنصب . ولا بدَّ من ان الصفات التي امتاز بها في كهولتهِ وشيخوختهِ كانت بادية فيهِ في شبابهِ اي الانفة والهمة والحزم وهي التي جعلت ولاة مصر يعتمدون عليهِ ولو كان صغير السن قليل الاختبار . ثم جُعل مديراً للفيوم فتنا فوكيلاً لمصلحة سكة الحديد فوكيلاً لروضة البحرين . ثم انتقل الى معية سعيد باشا وجُعل رئيساً للديوان الخديوي فمهردارا لسعيد باشا فمهردارا لاسماعيل باشا

ثلاثة من الولاة تعاقبوا على مصر فجعلوهُ كلهم مهردارا لهم اي امينا على ختومهم لا ارضاء لعزوة كبيرة يتسبب اليها ولا لبيت قديم نبغ منهُ بل لما رأوهُ فيهِ من الامانة وصدق الخدمة . ولما اراد اسمعيل باشا السفر الى الاستانة وجعل حليم باشا قائم مقام عنهُ جعل الفقيد مساعداً لهُ وخاطبهُ عند وداعهِ قائلاً على مسمع من جمهور المودعين اني لم ابقك هنا الا لاعتمادي عليك وثقتي بك . واحضر لهُ عند رجوعهِ من الاستانة رتبة المير ميران . ثم ارسلهُ الى الاستانة لامر هام وجعلهُ مستشاراً للمجلس المخصوص الذي رأسهُ ابنهُ توفيق باشا

الا ان هذه المناصب على ارتفاعها لم تكن لتنيل رياض باشا الشهرة الواسعة التي نالها حتى جعلت كتَّاب الافرنج يدرسون اخلاقهُ ويكتبون الفصول والكتب عنهُ وعن اعمالهِ . وقد ابتدأت شهرتهُ الحقيقية في فرصة اتيح لهُ فيها الوقوف في وجه الجور والاجحاف ومقاومتهما جهاراً وذلك في عهد اسمعيل باشا الذي كان اكبر كبير في هذا القطر يخشى سطوتهُ ولا يبيح لنفسهِ ان ينتقد اعمالهُ ولو في سرّهِ

قال لورد ملنر في المقابلة بين نوبار باشا ورياض باشا « ان كان نوبار يفخر بانهُ انشأ المحاكم المختلطة فوضع في البلاد اساس العدل فرياض يحق لهُ ان يفخر بانهُ قاوم اسراف اسمعيل بجسارة فائقة وعضد المراقبين في اصلاح المالية المصرية »

وقال لورد كرومر انهُ « لما عينت لجنة التحقيق سنة ١٨٧٨ (لتنظر في امر المالية المصرية وكيف تنفق اموالها جزافاً) عُين رياض باشا نائباً لرئيسها فاعترض البعض ولاسيما الفرنسويون على تعيين وطني في هذه اللجنة قائلين انهُ لا يستطيع مصري ان يبدي رأياً يغتاظ منهُ الخديوي ولكن رياض باشا نفى هذا الوهم فانهُ ابدى من الشجاعة الادبية ما يُعَدّ في المقام الاول وذلك في الوقت الذي كان المصري يتعرَّض فيهِ لاشد الخطر اذا اعرب عن رأيهِ بشيء من الاستقلال فكان لوجوده في اللجنة فائدة كبيرة وقد استحق ثقة اعضائها كلهم بهِ »

ولما اراد اسمعيل باشا ان ينقل رياض باشا من الداخلية الى الخارجية في اوائل سنة ١٨٧٩ لكي يضع في الداخلية رجلاً طوع ارادتهِ وقاومتهُ الحكومة الانكليزية والفرنسوية

لم يقف رياض باشا وقفة الرعديد بل فضّل ان يغيظ خديويهُ ولا يتخلى عن خدمة بلادهِ فانظر الخديوي ان يبقيهُ في نظارة الداخلية . والظاهر ان خصوم رياض باشا رأوا حينئذٍ ان لا بدَّ من التخلص منهُ ولو قتلاً بدعوى انهُ يفضل مصالح الاوربيين على مصالح الوطنيين . اما هو فبقي ثابتاً كالصخر في وجه هذا التيار العظيم فارتدَّ التيار عنهُ ولم يؤذهِ بل آذى نفسهُ

هذه هي المزية الاولى التي امتاز بها رياض باشا وفاق الاقران فاشتهر في الشرق والغرب بشجاعتهِ الادبية . والمزية الثانية حبهُ الشديد لوطنهِ ولو استلزم هذا الحب ان يضحي مصلحتهُ لاجل مصلحة ابناء وطنهِ

قال لورد ملنر في كلامهِ على الغاء العونة « ان نوبار باشا كان اول من شرع في هذا العمل وجاء بعدهُ رياض باشا وهو منتقد غيرة شريفة لاتمامهِ ولم يحجم عن وضع ضريبة جديدة على الاطيان لاجل الغاء العونة . وفي هذا العمل ما فيهِ من الجسارة لان هذه الضريبة يقع ثقلها على الاغنياء اصحاب الاطيان وهو منهم والعونة لا يظلم بها الاَّ الفقراء فنال موافقة الجمعية العمومية على ذلك لشدَّة الرغبة في ازالة هذا الحيف لكن هذه الضريبة الجديدة لم تجبَ قط لاستغناء المالية عنها »

ولخص لورد كرومر رأيهُ في رياض باشا في خطبتهِ الوداعية حيث قال بعد ذكر نوبار باشا . « واذكر ايضاً اسم رجل آخر من ارباب السياسة وانا مسرور بشاهدتهِ الآن بيننا ألا انهُ صديقي القديم المؤتمن دولتلو رياض باشا . انا ايها السادة في زمان لا يحتاج فيهِ الشاب المصري الذي يتظاهر بمظهر المصلحين الى شجاعة تذكر ولكن ما هو كائن الآن لم يكن كذلك طول الزمان . كان لاسماعيل باشا رحمهُ الله طرق عنيفة في معاملة الذين لا يطأطئون الرؤوس امامهُ ولا يعنون لهيبتهِ ومع ذلك وقف رياض باشا منذ ٣٠ سنة واعترض بكل جراءة على سوء الادارة واقام الحجة على فساد الاحكام الذي كان متغلباً على مصر في تلك الايام وعلق الجرس بعنق الهر فانجبت بشجاعتهِ هذه حينئذٍ . وكثيراً ما وقع بيني وبين صديقي ورصيفي القديم خلاف بعد ذلك ولكني لم أكف قط عن النظر اليهِ بعين المحبة التي تستحقها صفاتهُ البقرية »

وحقيق بلورد كرومر ان يقول هذا القول عن رياض باشا لان رياض باشا كان يثق بهِ ثقة لا يخامرها ريب . قال لورد كرومر في كتابهِ مصر الحديثة ان شركة انكليزية تألفت لتشتري سكك الحديد من الحكومة المصرية في وزارة رياض باشا الاولى ولما عُرض الامر على النظار التفتوا الى لورد كرومر وكان مراقباً من قبل انكلترا ليروا ما هو رأيهُ فيهِ . فقال لهم ان الامر في يدكم انتم فاذا كنتم توفضون البيع فانا اوافقكم على الرفض واذا كنتم تقبلون

به فانا ابذل جهدي حتى لا تغبنوا في الثمن . فقرَّ قرارهم على رفض البيع . وبعد ايام طُلب منهُ ان يفض خلافاً بين الحكومة المصرية واخواجات غريتفلد الذين انشأوا مرفأ الاسكندرية وكان لا بدَّ من ان يوقع رياض باشا شروط الحل التي وضعها لورد كرومر فاخذها ومضى بها اليه وهو لا يصدق انهُ يستطيع ان يوقعها في ذلك اليوم اذ لا بدَّ من النظر فيها اما رياض باشا فقال لهُ هل انت موافق على هذه الشروط ومقتنع بعدالتها فقال نعم فاخذها منهُ ووقَّعها من غير ان يقرأها لشدة ثقته به

ولما ألَّف لورد كرومر كتابهُ مصر الحديثة تكلم على رياض باشا بالاسهاب فقال ان حياتهُ السياسية يمكن ان تقسم الى اربع مدد مختلفة الاولى كناظر وأحد اعضاء لجنة التحقيق في عهد اسمعيل باشا . والثانية كرئيس للنظار في عهد توفيق باشا مدة المراقبة الانكليزية الفرنسوية . والثالثة كرئيس للنظار في عهد توفيق باشا ايضاً زمن الاحتلال . والرابعة كرئيس للنظار في عهد عباس الثاني . ففي المدة الاولى ظهر باعظم مظهر للعالم فقد سخط مما حلَّ بوطنهِ من الخراب الذي جرَّهُ عليهِ حكم اسمعيل باشا ووقف نصيراً للاصلاح وقفة من لا يهاب احداً في سبيل الاصلاح ايام كان المصري لا يجترئ ان يجاهر برأيهِ ما لم يعرض حياتهُ للخطر وماله للضياع . ومهما كان الخطاء الذي يمكن ان يكون رياض باشا قد ارتكبهُ في تقلبهِ في الوظائف بعد ذلك فلا يبرح من الاذهان انهُ اظهر حينئذٍ شجاعة عظيمة حقيقية ونظراً بعيداً في العواقب

وفي اوائل المدة الثانية اي مدة المراقبة الثنائية ظهر ايضاً كما ظهر في المدة الاولى ورأى فائدة الذين كانوا يشتغلون معهُ من الاوربيين لانهم وقفوا بينهُ وبين ارباب الديون الذين كانوا كالذئاب الجائعة . وكان يعلم من نفسه انهُ غير قادر على تخليص الحالة المالية من التشويش الذي كان فيها من غير مساعدة الاوربيين . وفي اواخر تلك المدة عرضت مشكلة لم يقوَ على حلها ولم يكن قد انتبه الى اهميتها وهي الثورة العرابية بقرفهُ سيلها الجارف

وفي المدة الثالثة خلف نوبار باشا رئيساً للنظار وفي اوائل هذه المدة جرت الامور مجرى حسناً وهو يمتاز على نوبار باشا بحسن الادارة وبمعرفته الامور الزراعية واحوال المزارعين والموظفون المصريون يهابونهُ هيبة شديدة ويسهل عليهِ المتعلمين الخضوع لحلمهِ المتمسك بدينهِ . لكنهُ كان شديد التمسك برأيهِ فعسر عليهِ ان يديرد فة السياسة في زمن الاحتلال واضطر الى الاستعفاء

ولم يتكلم لورد كرومر عن المدة الرابعة لان كتابهُ لا يتناولها ثم ودَّ لو يكثر في مصر الوطنيون المتصفون باسمى المناقب مثل رياض باشا

وتعرَّفنا برياض باشا في وزارته الاولى بواسطة المقتطف وزرنا القطر المصري في صيف

سنة ١٨٨٠ فلقينا منهُ فوق ما نستحقهُ من الاكرام · وكانت وزارتهُ قد الغت كثيراً من المظالم والمغارم التي كان اهالي القطر يرسفون في قيودها ومع ذلك كانت حال الشام حينئذٍ اصلح كثيراً من حال القطر المصري وكان النابغون من اهالي هذا القطر يقرأون الجرائد والمجلات السورية ويعجبون بها ويشكون من ان حالهم دون حال جيرانهم · وانتشرت هذه الشكوى في البلاد على ما يظهر فنهضت بها نهضة ادبية سياسية · ولقينا حينئذٍ زعماء تلك النهضة ومنهم الشيخ محمد عبده وعبد الله افندي نديم وعلي بك مظهر وابرهيم افندي اللقاني وعدنا منهم ومن غيرهم من الاوربيين المقيمين في مصر ان تحت الرماد ناراً مخبوءة ولا بدَّ من اضطرامها يوماً ما · الاَّ ان رياض باشا كان مسروراً بنجاح عملهِ متفائلاً خيراً بتلك النهضة طالباً المزيد منها لبلادهِ غير موجس شرًّا من الحوادث التي حدثت في اخريات ايام اسمعيل باشا وابقت اثرها في النفوس · فرجعنا من مصر ونحن على رأي رياض باشا واعضاء وزارتهِ ونشرنا في الجزء السادس من المقتطف الصادر في اول اكتوبر سنة ١٨٨٠ ما نصهُ :

« ليس من ينكر ان كل بلاد ابقى الله في اهلها بقية للنجاح والترقي ترتقي وتزهو اذا حافظت حكومتها على الاستقامة واعتمدت على العدل وقصدت مصلحة الرعية واخلصت الحب والخدمة للوطن · فاذا تدبر العاقل احوال مصر الجارية وقاس حاضرها بماضيها وقابل منهجها بمنهج غيرها من الممالك المرتقية ذرى النجاح والمجد او الهابطة في دركات الحطة والخسف فلا ريب انهُ يحكم لها برغد العيش وسعادة المستقبل ما دامت على هذا المنهج · وشواهدنا على صدق ذلك كثيرة لذكر منها جملة تحققناها بانفسنا وهي

« اولاً تيقظ حكامها وشعورهم بما هو واجب عليهم للرعية وتحققهم ان عزَّهم باعزاز وطنهم وذلهم باذلالهِ · فاسمع ما قالهُ لسامو الخديوي توفيق الاول لما تشرفنا بالمثول لديهِ في هذه الاثناء · « ماذا يبقى للانسان غير الذكر الجميل في هذه الارض فكم قام قبلي ممَّن هم اسمى مني وادنى وماذا ابقوا غير ذكرهم · فانا سلني الله رعاية هذه الامة فواجباتي السهر عليها وصون حقوقها وبذل الجهد في ما يزيد راحتها وثروتها ومعارفها فهي مني وانا منها وعزها عزي وذلها ذلي وانا متوكل عليهِ تعالى ان يحسن نفعي لوطني وبيتي لي الذكر الجميل عند رعيتي » الى غير ذلك من الاقوال التي حركت اعماق عواطفنا واثارت الدمع في اعيننا لما شفَّت عنهُ من المحبة الوطنية والشيمة والحمية · ومثل ذلك كلام نظارها وعلمهم بواجباتهم وقربهم من الناس وحسبانهم الدعة زينة واستجلاب قلوب الرعية فخراً

« والثاني الاساس الوطيد الذي أقيمت عليهِ ادارة مصر الآن فانا لما سألنا وزيرها

الاكبر صاحب الدولة رياض باشا عن المعارف هناك وما يؤمل لها من النجاح في المستقبل اوضح لنا باجلى بيان المنهج الذي نهجتهُ حكومة مصر حتى تخلَّصت من ارتباكاتها والاساس الذي وضعتهُ لضبط ادارتها ونشر المعارف في بلادها . ولا يسعنا بسط ذلك هنا ولكن من يتأمل في الاموال العظيمة التي قطعت هذه السنة لتنشيط المعارف عدا عن الاموال التي قطعت للاصلاحات المتعددة الانواع يبشر مصر بنجاح قريب

« وثالثاً تخفيف كرب الفلاَّح الذي عليهِ جلُّ اعتماد مصر كما لايخفى . وهذا قد صار اشهر من ان يذكر . ومما يحسن سوقهُ هنا اننا كنا سائرين في شارعٍ من شوارع طنطا فسمعنا رجلاً يدعو على حكومة مصر بالويل والخراب لانهُ شاهد في ايامها ما لم يخطر لهُ على بالٍ وهو ان الفلاح صار يشحذ عليهِ فلا يدفع لهُ فائدة المئة عشرين مع انهُ كان قبلاً يتذلَّل لهُ حتى يأخذها باضعاف ذلك . ولارتفاع الضنك عن الفلاَّح صرت تراهُ يحسب نفسهُ من البشر فيجول في شوارع القاهرة مستنشقاً نسيم الحرية متمتعاً بما يحقُّ للانسان ان يتمتع بهِ وهذا يستغربهُ اهل القاهرة انفسهم

« ورابعاً عدم الانشقاق المذهبي بين اهلها فان اعجب ما يتعجب منهُ ابن هذه البلاد عند دخولهِ بلاد مصر عدم تحزُّب الناس التحزُّب الاعمى الذي يظنُّهُ الجاهل انهُ يخدم بهِ ربهُ وهو يتعدَّى وصاياهُ

« وخامساً اعتماد مصر على الاجانب لقضاء ما كان يتعسَّر على اهلها قضاؤهُ وذلك وان كان يظهر لكثيرين مؤدِّياً الى خسارة مصر من وجوهٍ شتَّى فهو لا يظهر كذلك لمن يعلم حقَّ العلم ان لا نصيب من مصر لغير اهل مصر وان للافرنج زمناً محدوداً يقضونهُ فيها ثم يخرجون من وظائفها كما دخلوها . وهذا يشعر بهِ اقوى الافرنج في مصر صولةً واشدهم للتملك فيها رغبةً . قال لنا بعض اهل الدراية العالمين بتقلُّبات الاحوال منهم « الظاهر ان مصراً في يد الافرنج والحق ان تياراً خفياً يسلبهم الآن الصغائر وعما قليلٍ يسلبهم الكبائر ايضاً وستكشف لكم الايام ذلك » انتهى ما كتبناهُ منذ احدى وثلاثين سنة

ثم هاجرنا الى مصر بدعوة من رياض باشا ونقلنا اليها المقتطف فرحب بهِ هو والمرحوم شريف باشا احسن ترحيب كما يرى في كتابيهما المدرجين في صدر الجزء السادس من المجلد التاسع . وكتب الى كثيرين من اصدقائهِ ومريديهِ لكي يقتنوا المقتطف ويرغبوا الناس في اقتنائهِ وذكر لهم ما استفادهُ هو منهُ

وكنا نكثر التردُّد على مجلسهِ ونعجب بحبهِ للعلم ولا نزال نعجب بهِ لا سيما وانهُ عاش في

زمن كانت وسائط تحصيل المعارف فيهِ قليلة . وتكرر هنا ما قلناهُ عنهُ سابقاً لهُ المقطم بعيد وفاتهِ وهو انهُ اجاد تعلم اللغات العربية والتركية والفارسية والفرنسوية فكان يتكلم ويكتب ويطالع كتب العلم والادب والتاريخ في كل لغة منها . وظل الى آخر يوم من حياتهِ مجازياً لاهل عصرهِ في سعيهم مهتماً بما يهمهم مرافقاً بل سابقاً لهم ومتقدماً عليهم في لتقدمهم لا يضيع فرصة في الاستعلام عما يجدُّ من المعارف والمكتشفات والمخترعات وعن بذل جهدهِ في تأييد الاصلاحات وخصوصاً الزراعية والاقتصادية والاجتماعية حتى انهُ توفي الى رحمة ربهِ وهو يرئس لجنة المؤتمر المصري الذي كان آخر اكليل كلل برئاستهِ في حياتهِ . وقد كان الناس يعدونهُ ثقة من اكبر ثقات مصر في الامور الادارية والزراعية علماً وعملاً وقد حضرنا لهُ مجالس عديدة خاصة باكابر الخبيرين من ارباب الادارة والزراعة وسمعنا احاديثهم فيهما فكنا نجد اقوالهُ وآراءهُ تفوق اقوالهم وآراءهم في الوضوح والجلاء بمنازل . وسمعنا آخرين من الذين كانوا يحضرون مجالسهُ مع المديرين وغيرهم في دواوين الحكومة يقولون مثل قولنا هذا ايضاً

وقد اتصف مع هذه الصفات بشدة العزيمة والحزم وقوة الارادة . فلذلك كان اذا تقلَّد مناصب الحكومة ولا سيما وظائف الادارة يتلو التنفيذ فيها التنفيذ بسرعة عظيمة

وكانت مصر تعلم ذلك منهُ وتعتمد على كفاءتهِ ومزاياهُ عند اشتداد الازمات والمام الملمات . فلما خلع اسمعيل باشا كان الفقيد في اوربا معتزلاً الوظائف اثر الخلاف الذي وقع بين الخديوي المشار اليهِ والمندوبين الاجانب في المالية المصرية ولما جلس توفيق باشا على الاريكة الخديوية واستعفت وزارة المرحوم شريف باشا ارسل سموهُ يطلب الفقيد بالتلغراف ليؤلف الوزارة . وطار حينئذٍ رياض باشا حينئذٍ في الآفاق وجرت مصر في اوائل وزارتهِ شوطاً بعيداً في التقدم وعظمت الثقة بها . وكان الفقيد كعبة القصاد من اقاصي البلاد وكان اسمهُ على كل لسان وفي صحف جميع البلدان . ودارت الامور على محور الاتفاق بينهُ وبين المرافبة الثنائية حتى خيل الى الناس ان مصر جرت في سبيل المدنية الاوربية . ولكن لم تساعدهُ الاقدار الى النهاية بل اعترضتهُ الثورة العرابية واضطرتهُ الى اعتزال اشغال الحكومة والسفر الى البلدان الاجنبية . على انهُ قبل ان تخمد جذوة تلك الفتنة ارسل الخديوي يستقدمهُ منها فتقلد نظارة الداخلية في الوزارة الشريفية وكان ممن يرى وجوب معاقبة العصاة معاقبة شديدة بلا شفقة ولا رحمة . فلما لم يطاوع على رأيهِ استعفى من النظارة واعتزل اشغال الحكومة الى ان فوض اليهِ المرحوم الخديوي السابق تأليف الوزارة الرياضية الثانية سنة ١٨٨٨ بعد سقوط الوزارة النوبارية

وبعد مضي اشهر قليلة على وزارته الثانية انشئت جريدة المقطم وابتدت تلك الوزارة بكل قوتها لاستصوابها خطتها واستقطامها اعمالها والاصلاحات والمآثر العديدة التي جرت في ايامها. ومن يراجع مجلدات المقطم في سنيه الاولى يجدها شبه تاريخ لوصف اعمال الوزارة الرياضية الثانية والدفاع عن سياستها وشرح الاصلاحات التي تمت على يدها والضرائب الكثيرة التي الغيت في عهدها ومدح المآثر والآثار التي تركها الوزير الفقيد شاهدة بصدق وطنيته وشدة غيرته على امته. وقد تيسر لنا في ذلك الحين ان ندرس اخلاقه وصفاته وطباعه عن قرب وان نمحص ما يقوله انصاره في مدح اعماله وخصومه في ذمها ونعلم مقدار ما في اقوال الفريقين من الصواب والخطإ

فلا ريب عندنا ان الفقيد كان رجلاً رفيع الآداب صادق الوطنية شديد الغيرة على مصر والرغبة في ابلاغ اهلها أعلى غاية في كل امر حميد. ولا ريب انه كان حسن المقاصد يحب الخير للناس ويحب خيار الناس وينفر من اشرارهم نفوراً ظاهراً لا يخفيه عنهم. وكان لشدة غيرته على قومه يحسب نفسه مسؤولاً عن كل مصري فيدافع عنه دفاع الاب عن ابنه ويوبخه ايضاً ويعنفه بكلام مؤلم اذا رأى منه ما لا يعجبه فلذلك كان بعض الذين يوبخهم من كبار الموظفين يخطئون الباعث الحقيقي له على ذلك فيستاؤون منه وربما حقدوا عليه ورموه بالكبر وحب الاستبداد وباتوا من خصومه والمتكلمين في حقه ونحن نعلم نوادر غريبة من هذا القبيل يضيق المقام عن ذكرها الآن

ثم انه كان اذا رأى البيئة يطلب ازالتها او اصلاحها باقرب الطرق التي يدله عليها ذكاؤه الفطري والادارة التي الفها واعتادها في زمانه. فاذا وجد امامه حوائل وعوائق نظامية عيل صبره عليها واراد التخلص منها بما اتصف به من شدة العزيمة وقوة الارادة. وهذا ما اوقع الخلاف بينه وبين رجال القانون في الحقانية والمحاكم وجعل كثيرين من هؤلاء يرمونه بحب الاستبداد بالامور وكراهته للنظامات الدستورية. وهذا ما اوقع الخلاف بينه وبين بعض الاوربيين الموظفين في الحكومة وخارجها وجعلهم يرون رأي رجال القانون في افعاله

وجملة القول ان الفقيد كان من اعظم وزراء مصر وان له اليد الطولى في ارتقاء هذا القطر مادياً وادبياً باعماله وقدوته. وقد عرف القطر له ذلك واعترف به جهاراً ولا سيما في الاحتفال العظيم الذي اقيم لمأتمه فقد اشتركت فيه الحكومة والامة وافرغتا الجهد في جعله مظهراً للابهة والجلال. وسيبقى اسم رياض باشا خالداً في نفوس ابناء وطنه وغيرهم من الشرقيين ما ذكرت الوطنية الصحيحة والجرأة على مقاومة الجور والاستبداد